الفصل السابع

التربية العربية قبل الإسلام والتربية الإسلامية

الفصل السابع

التربية العربية قبل الإسلام والتربية الإسلامية

أولا : التربية العربية قبل الإسلام :

يقول السيد عبد العزيز سالم (١٩٦٩ ، جـ١ ، ص ص٤٣- ٤٤) : وردت لفظة عرب فى الوثائق الآشورية والبابلية منذ القرن الثامن قبل الميلاد بمعنى البادية ، ووردت فى الأشعار القديمة بمعنى البدو ، وكان سكان الحضر يسمون بأسماء قبائلهم أو بأسماء المواضع التى ينزلون فيها. ولانعرف على وجه الدقة متى استعمل لفظ عرب للدلالة على الجنس العربى ، ويبدو أن القرآن الكريم هو أول مصدر ورد فيه لفظ العرب للتعبير عن هذا المعنى . يقول السيد عبد العزيز سالم (ص٤٥) : «واضح أن القرآن الكريم هو أقدم مصدر عربى وردت فيه صيغتا أعراب وعرب» ويخلو الشعر الجاهلى الذى وصل إلينا من وجود لفظة عرب للتعبير عن المعنى القومى. ولعل ذلك يرجع إلى انشغال العرب بالحروب والمنازعات فيما بينهم على مصادر الكلأ والنجعة وتفاضل الأحساب والأنساب. يقول سعد مرسى أحمد (١٩٨٦ ، ص٢٠٤) : « وكثيرا ما أريقت الدماء على الرمال ، فالقبائل تتناحر ، وتتفاخر بالأنساب ، وتمدح وتهجو». ويقول حسن جمعة (١٩٩٨ ، ص ص٣٩-٤٠) : «إنهم (يريد عرب الجاهلية) لم يهتدوا إلى مصطلح لغوى جامع لأصولهم إلا قبيل مجئ الرسالة الإسلامية» لقد كان العرب قبل الإسلام غارقين فى منازعاتهم القبلية ولاهم لهم إلا تعميق ولائهم لقبائلهم الصغرى. ومن هنا نفهم قول دريد بن الصمة فى الدفاع عن قبيلته حيث يقول فى ديوانه (١٩٨١ ، ص ٤٤):

وما أنا إلا من غزية إن غوت ... غويت وإن ترشد غزية أرشد

وحينما وقف العرب فى نهاية العصر الجاهلى أمام الفرس بدأوا يشعرون بنوع من الانتماء للجنس العربى فى مقابل كراهيتهم للفرس . ولقد عبر عنترة (١٩٩٢ ،

ص١٦٣) عن هذه الكراهية بقوله يتحدث عن ناقته ، التى رفضت أن تشرب من غير المياه العربية :

شربت بماء الدحرضين فأصبحت ... زوراء تنفر عن حياض الديلم

ويقصد عنترة بالديلم الأعداء ، الأمر الذى يوحى بفكرة العرب باعتبارهم جنسا فى مقابل الفرس باعتبارهم جنسا آخر . وكان للإسلام الفضل فى بعث روح القومية عند العرب. ومنذ مطلع الإسلام أخذ العرب يتباهون بالجنس العربى مما دعا الرسول صلى الله عليه وسلم إلى القول فى خطبته الأخيرة (الجاحظ ، د.ت، ص٢٢٩) «ليس لعربى فضل على عجمى إلا بالتقوى» فالإسلام بالرغم من اعترافه بالأجناس لايفرق بين العربى وغير العربى. يقول شيخ الأزهر : السيد محمد مصطفى المراغى (نقلا عن حسن أحمد الحيارى ، د.ت ، ص٨): «غير خاف عليكم أن الدين لم يذهب إلى العصبية الجنسية ، ولم يفرق بين العربى وغير العربى ، وجعل الأمة الإسلامية واحدة لا فرق بين أجناسها » ويقول أبو الأعلى المودودى (١٩٨١، ص ص١٥٣ - ١٥٥) : إن الإسلام يخاطب الإنسان ويتعامل معه من حيث كونه إنسانا. فهو يقدم للبشرية نظاما اجتماعيا للعدل والتقوى ، ويدعو جميع البشر إلى هذا النظام ، ويمنح له حقوقا متساوية مع الجميع . فهدف الإسلام هو إقامة دولة عالمية تتحطم فيها جميع سلاسل التعصبات العرقية والقومية .

وتختلف جغرافية بلاد العرب باختلاف أجزائها ، فالقسم الأكبر منها صحراء تتخللها بعض الواحات . وكان هذا الاختلاف سببا فى وجود نوعين من السكان هم البدو الذين سكنوا فى البادية واشتغلوا بالرعى ، والحضر الذين سكنوا فى المدن واشتغلوا بالزراعة أو الصناعة أو التجارة . ويقسم المؤرخون بلاد العرب أقساما مختلفة . وعلى سبيل المثال يقسم حسن إبراهيم حسن (١٩٥٩، ص٤) بلاد العرب ثلاثة أقسام هى بلاد العرب الصخرية ، وتقع فى الشمال جنوب غربى بادية الشام ، وبلاد العرب السعيدة (اليمن) ، وبلاد العرب الصحراوية ، وهى أكبر الأقسام الثلاثة لكثرة صحراواتها فى الوسط والشمال والجنوب . ويذهب فنجان Fingan (١٩٥٢ ،

ص٤٦١) إلى أن شبه جزيرة العرب من أكبر أشباه الجزر فى العالم ، إذ تبلغ مساحتها حوالى مليون ميل مربع، وتقع الجبال الشاهقة على امتداد شواطئها الثلاث، وتتراوح ارتفاعاتها مابين ١٢٠٠ - ٩٩٠٠ قدم ، وأرض شبه الجزيرة ذات طبيعة هضبية تنحدر من الغرب إلى الشرق ، وتمثل الصحارى والمنحدرات الجزء الأكبر من الإقليم ، ولايوجد فيها نهر واحد دائم الفيضان ، وإن كان فيها بعض الواحات التى يعتمد سكانها على المياه الجوفيه . وتسقط الأمطار الموسمية بغزارة على أطراف شبه الجزيرة الأمر الذى أعان على إقامة حياة شبه دائمة فى تلك الأقاليم سواء فى الشمال أم الجنوب . فالأمطار تسقط فى فصلى الخريف والشتاء على الأجزاء الشمالية ، وتسقط صيفا على الأجزاء الجنوبية . ولقد أعانت هذه الخصائص الجغرافية على قيام حضارات زاهرة فى شمال شبه الجزيرة العربية وجنوبها.

ويمتد تاريخ شبه الجزيرة العربية إلى العصر الجليدى إذ يستدل طومسون Thompson (١٩٤٤ ، ص٣) من بقايا المقابر والمعابد المكتشفة فى منطقة حضرموت على وجود حياة لصيادى هذا العصر الذين تركوا أدوات صيدهم وزينتهم . وفى العصور التاريخية كانت شبه الجزيرة العربية محلا لاهتمام جيرانها من المصريين والآشوريين والإغريق والرومان ، وتشير سجلات هذه الشعوب إلى وجود علاقات بينها وبين شبه الجزيرة العربية. إذ يقرر برستيد Breasted (١٩٠٥ ، ص ٤٨) أن سمرخيت الملك الفرعونى من سيناء ووادى المغارة ، وأن الملكة حتشبسوت أرسلت بعثة إلى بلاد نبط لاستجلاب البخور وأدوات الزينة . ويذهب مارجوليوس Margoliouth (١٩٢٤، ص ٤٩) إلى القول بوجود علاقات بين الآشوريين وشبه الجزيرة العربية ، وإلى وجود علاقات بين الاسرائيليين وسكان شبه الجزيرة العربية ، وأن الذهب والأموال تذهب إلى سليمان من الملوك العرب . وقصة ملكة سبأ وسليمان غير خافية . كما ويذكر أن سجلات الإغريق والرومان تتضمن إشارات إلى شبه الجزيرة العربية . وفيما يلى بيان لبعض ملامح الحضارات الشمالية والجنوبية وبعض الحواجز الأخرى التى نشأت فى شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام توطئة لمناقشة اتجاهاتها التربوية بصفة عامة.

أ- الحضارات الجنوبية:

سكن عرب الجنوب فى بلاد اليمن. وكانت بلاد اليمن كثيرة الأشجار والثمار والزروع حتى عرفت باليمن الخضراء، وعرفت فى التاريخ اليونانى ببلاد العرب السعيدة لكثرة خيراتها وحاصلاتها . ولقد اشتهرت بلاد اليمن فى عصورها القديمة بعظمة البناء حيث أقيم فيها السدود والقصور العظيمة مثل سد مأرب وحضرموت وسد لقمان ، وقصر غمدان وقصور بلقيس الثلاثة. وقامت بها ثلاث حضارات عظيمة هى حضارة معين وحضارة سبأ وحضارة حمير. وكان المعينيون والسبئيون أبناء حبش واحد ولكنهم كانوا يتنافسون على السيادة فى بلادهم وعلى السيطرة على الواحات التى تمر بها القوافل التجارية . ويذهب جواد على (١٩٥٠ ، ص ٤٠٥) إلى أن الدولة المعينية كانت ملكية ، وكان لها مجالس لإدارة شئون الحرب والسلم أشبه بدار الندوة فى مكة فى العصر الجاهلى. واستقر السبئيون فى بلاد اليمن فى القرن الثامن قبل الميلاد، وأقاموا دولتهم على أنقاض دولة معين، وأخذوا عنهم لغتهم وديناتهم وتقاليدهم واشتغالهم بالتجارة والزراعة . ولقد مهر السبئيون فى التجارة مما دعا فيليب حتى (١٩٥٣، ص٦٠) إلى وصفهم «بفينيقى البحر الجنوبى». ولقد اشتهر السبئيون بإقامة السدود والقنوات لحماية مأرب من أخطار الفيضانات والتحكم فى الماء من أجل الزراعة. وعلى الوجه الآخر من السد أقيمت الحصون والأبراج. ولقد تحطم سد مأرب قبيل ظهور الإسلام فأغرق الماء الوادى وتحول فيما بعد إلى صحراء. وبالرغم من ذهاب معالم السد فإن القنوات التى كانت تحمل الماء إلى السهول ماتزال باقية حتى الآن. ونتيجة لتهدم سد مأرب وتحول الأرض المزروعة إلى أرض مقفرة هاجرت بعض القبائل السبئية إلى مشارق الشام كالغساسنة أو إلى البحرين كالتنوخيين أو إلى العراق كالمناذرة . و على أنقاض دولة السبئيين قامت دولة الحميريين . وكان الحميريون مرتبطين بالسبئيين بروابط الجنس واللغة والثقافة. ويقسم المؤرخون الدولة الحميرية قسمين : الدولة الحميرية الأولى والدولة الحميرية الثانية، ويذكرون أن الحملة الرومانية على بلاد اليمن وقعت فى عصر الدولة الأولى للسيطرة على طرق التجارة ، واستغلال ثروات اليمن ، وتطهير البحر الأحمر من

القراصنة . ولقد أضر احتكار الطرق التجارية باقتصاديات اليمن ضررا يفوق الضرر الذى ترتب على تهدم سد مأرب. وفى عهد الدولة الحميرية الثانية غزا الأحباش اليمن بقيادة النجاشى لاعتبارات اقتصادية. وزاد سلطان الأحباش على اليمن فعينوا أبرهة الأشرم حاكماً على اليمن وممثلا للأحباش. وقام أبرهة بنشر النصرانية فى اليمن وبنى كنيسة فى صنعاء سخر اليمنيين فى بنائها. وحينما دنس أحد العرب هذه الكنيسة بالقاذورات ، أقسم أبرهة على هدم الكعبة باعتبارها قبلة العرب . ويذكر ابن هشام (١٩٥٥، جـ١، ص٥١) أن جنود أبرهه أصابوا إبلا لعبد المطلب، فأتى عبد المطلب أبرهه يطلب إبله، فأمر بردها له. وقال أبرهه لعبد المطلب: ألا تسألنى الرجوع؟ فقال عبد المطلب: أنارب هذه الإبل وللبيت رب يمنعه منك. فأرسل الله عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل، وتجعل كيدهم فى تضليل، وتجعلهم كعصف مأكول. وحينما حاول سيف زى يزن إخراج الأحباش من اليمن استعان بالفرس فأعانوه، وطرد الأحباش، ولكن ظلت اليمن خاضعة لسلطان الفرس.

ب- الحضارات الشمالية:

كان للنشاط التجارى فى اليمن والحجاز أثر كبير فى قيام دويلات عربية على تخوم الشام والعراق فى العصر السابق على ظهور الإسلام . ومن أشهر هذه الدويلات الأنباط والمناذرة والغساسنة . أما مملكة الأنباط فقامت فى شمال الحجاز فى بادية الشام وجنوب سوريا فى القرن السادس قبل الميلاد ، واتخذت من التبراء عاصمة لها. وكانت حضارة الأنباط حضارة مركبة ، إذ كانت عربية اللغة ، آرمية الكتابة ، سامية الديانة ، يونانية - رومانية فى الفن والهندسة والمعمار . وكانت الحضارة تجارية ، إذ كان الأنباط يتجرون فى العطور والمنسوجات الحريرية واللآلئ والذهب والزيوت . هذا فضلا عن اشتغال بعض السكان بصناعة الأوانى الفخارية والصحون الرقيقة . وكان الأنباط محاربين أشداء شديدى المراس بالقدر الذى جعلهم يستعصون على الأعداء الذين حاولوا غزوهم كالآشوريين والفرس والإغريق . أما المناذرة فترجع أصولهم إلى قبيلة تنوخ وهى قبيلة يمنية هاجرت من اليمن بعد تصدع سد مأرب إلى بادية العراق واستقرت فى منطقة الحيرة والأنبار.

وكانت الحيرة فى عهدهم مركزا للعلوم والفنون والآداب، وكانت ملتقى للعلماء والأدباء فى العصر الجاهلى. وكان النعمان بن المنذر يقيم مهرجانات أدبية يجتمع فيها الشعراء والخطباء . ويذكر يوسف غنيمة (١٩٣٦ ، ص ص٢٣ ـ ٢٦) أن الحياة الدينية فى الحيرة كانت متنوعة . فأهل الحيرة كانوا إما وثنيين يعبدون الأصنام ، وإما صابئة يعبدون الكواكب ، وإما مجوس يعبدون النار ، وإما يهود أو نصارى ، وأما الغساسنة فترجع أصولهم إلى قبيلة الأزد وهى قبيلة يمنية سكنت بادية الشام. ويذكر المسعودى (١٩٥٨ ، جـ٢ ، ص١٠٩) أن ديار الغساسنة كانت تمتد مابين الجولان واليرموك ، وكان الغساسنة يقيمون بالقرب من دمشق فى موضع على نهر بردى يعرف بجلق . ولقد تأثرت حضارة الغساسنة بالحضارتين الساسانية والبيزنطية. واشتغل الغساسنة بالزراعة ، وبناء القصور والأبراج ، غير أنهم كانوا يفضلون الإقامة فى البوادى على الإقامة فى المدن.

جـ- حواضر الحجاز:

ظهرت عدة حواضر فى بلاد الحجاز هى الطائف ومكة ويثرب . أما الطائف ويثرب فكانت أرضهما سهلية خصيبة ، وأما مكة فكانت واديا قاحلا صخريا ، واستمدت أهميتها من وقوعها على ملتقى الطرق التجارية وكان بها مكة وبئر زمزم . وكانت بلاد الحجاز بصفة عامة مهمة من النواحى الاقتصادية والدينية . فمن الناحية الاقتصادية كانت بلاد الحجاز ملتقى الطرق التجارية التى تربط بين بلاد الشام وحوض البحر المتوسط واليمن والصومال والحبشة والسواحل المطلة على المحيط الهندى ، ولذلك نشأ فيها عدة ثغور مثل مكة وجدة ويثرب. ومن الناحية الدينية كانت بلاد الحجاز ملتقى الأديان السماوية الثلاثة اليهودية والنصرانية والإسلام . وفيها ظهر الإسلام باعتباره دينا ودولة. ولقد بينت النقوش القديمة فى شمال الحجاز أن بلاد الحجاز كانت تابعة للمعينيين ثم السبئيين ثم الحميريين ، ثم وقعت فى قبضة الأنباط الذين توغلوا فى بلاد الحجاز وفرضوا على أهلها ثقافتهم وأديانهم . ويذكر خليل نامى (١٩٣٥ ، ص١٠٥) أن الحجازين عبدوا اللات والعزى ومناة وهبل ، وكانت هذه آلهة الأنباط، كما استعاروا الخط النبطى منهم . ولقد تعاقب البيزنطيون

والفرس والأحباش فى حكم بلاد الحجاز رغبة فى السيطرة على الطرق التجارية . وفى نهاية القرن السادس الميلادى استطاعت قريش بفضل زعيمها هاشم بن عبد مناف احتكار تجارة الهند والشام . ويذكر اليعقوبى (١٣٨٥هـ ص٢٠٢) أن هاشم بن عبد مناف أول من سن رحلتى الشتاء والصيف ـ رحلة الشتاء إلى الشام ورحلة الصيف إلى الحبشة ـ . ولقد استطاع هاشم بن عبد مناف تأمين طرق التجارة من خلال عقد العهود مع القياصرة وملوك الأحباش ، وأعانت الحروب المستمرة بين فارس وبيزنطة على هيمنة قريش على طريق التجارة ومن ثم ازدهرت مكة والطائف ويثرب . ويذكر المقدس (١٩٠٦ ، ص٧٩) أن اعتدال الجو فى الطائف وخصوبة أرضها وتوفر المياه فيها أعانت على اشتغال أهل الطائف بالزراعة فكثر فيها أشجار النخيل والعنب والموز والرمان والتين والخوخ والبطيخ فضلا عن الحنطة. وإلى جانب الزراعة اشتغل سكان الطائف بالصيد وتربية النحل والتجارة. ويذكر السيد عبد العزيز سالم (١٩٦٩ ، جـ١ ، ص٣١٣) أن أهل مكة اشتغلوا بالتجارة وكانوا يصنعون الأسلحة من رماح وسكاكين وسيوف ودروع ونبال. ولعل ذلك يبدو على أفضل نحو من قوله : « وكان سعد بن أبى وقاص يبرى النبال ، وكان الوليد بن المغيرة حداد ، وكان خباب بن الأرت قينا يعمل السيوف. وكان أهل مكة يصنعون القدور والجفان والصحاف و الأباريق من الفخار. وعرفوا صناعة الأسرة والأرائك » وكانت يثرب أرضا سبخة كثيرة المياه والشجر وسكنها مجموعتان من السكان هما اليهود والعرب. أما اليهود فقد فروا إليها هربا من عنت الرومان ، واستطاعوا تهويد عدد من سكان يثرب وكان لهم بيت يعرف ببيت المدارس يجلس فيه العلماء والأحبار لتدارس التوراة والفصل فى الخصومات . وإلى جانب اليهود سكن العرب الذين وفدوا إلى يثرب من اليمن بعد تهدم سد مأرب ، وكانت قبيلتا الأوس والخزرج أشهر هذه القبائل العربية التى وفدت من بلاد اليمن . ولقد اشتغل سكان يثرب بالزراعة والتجارة والصناعة . يقول السيد عبد العزيز سالم (١٩٦٩ ، جـ١ ، ص٣٣٥) : «لقد اشتغل السكان (يريد سكان يثرب) بالزراعة وبخاصة زراعة الشعير والقمح والكرم، واشتغلوا كذلك بالتجارة وبعض الصناعات مثل صناعة

الخمور من التمر وصناعة القفف من سعف النخل والنجارة وصناعة المعادن كالحلى وأدوات الزينة والأسلحة والدروع . وقد احترف بنو قينقاع صناعة الدروع والسيوف والأقواس».

د- العصر الجاهلى:

يعتبر العصر السابق على الإسلام جاهلية من وجهة النظر الإسلامية . ولقد وردت كلمة الجاهلية مرات عديدة فى القرآن الكريم وتعنى بصفة عامة الجهل أو الإلحاد. ونظرا لأن هذه التسمية لاتصدق كلية على الحضارات العربية التى تحدثنا عنها فإننا نميل إلى قصر الجاهلية على القرن السابق لظهور الإسلام. والخاصية الأساسية للحياة العربية فى ذلك القرن هى الحياة البدوية. ففى الجنوب كان خراب سد مأرب رمزا لانحطاط الحضارة المدنية هناك . وفى الشمال ذهبت حضارة الأنباط والغساسنة والمناذرة وفقدت مدنها القوية قوتها . يقول السيد عبد العزيز سالم (١٩٦٩، جـ١ ، ص ص٢٠٩ ـ ٢١٠) : « أدى التحالف بين الغساسنة والرومان ووقوع الخلاف بينهم فى عهد المنذر وابنه النعمان إلى تفريق الغساسنة، حيث انقسموا إلى خمس عشرة فرقة لكل فرقة رئيس ، فدخل بعض هذه الفرق فى سلطان الفرس، ورحل بعضها إلى بلاد الروم ... وعلى هذا النمو تصدعت إمارة الغساسنة وتفككت وحدة عرب سوريا » وفى الحجاز ونجد ظلت الحياة البدوية من أخص حياة سكانها . ولم يوجد فى الحجاز سوى ثلاث مدن هى الطائف ومكة والمدينة . وكان لبدو الشمال نزعة إحيائية إذ اعتقدوا أن الحصون والآبار والأحجار والأشجار أماكن تسكنها الأرواح والأشباح ـ ويذهب شوقى ضيف (١٩٦٠ ، ص ٨٩) إلى أن عرب الجاهلية أخذوا بمذهب الطوطمية واعتقد بعضهم أن طوطمهم الحيوانية أو النباتية أو الجمادية تحميهم وتدافع عنهم ولذلك كانوا يقدسونها . وتبدو ملامح هذه الطوطمية فى أسماء العرب وأسماء قبائلهم حيث نجد بنى فهد ، وبنى أسد ، وبنى كلب. وكان العرب يسمون أبناءهم بأسماء الطيور مثل عقاب ونسر وبأسماء النباتات مثل حنظلة أو بأسماء الجماد مثل صخر. ويذكر السيد عبد العزيز سالم (١٩٦٩ ، جـ١ ، ص ٤٣٥) أن حركة دينية ظهرت فى بلاد العرب قبل

الإسلام عرفت بالحنفية أنف أصحابها من عبادة الأصنام ووجدوا الله . ومن أشهر هؤلاء الحنفاء فيما يقول السيد عبد العزيز سالم: « قس بن ساعدة الإيادى ، وزيد بن عمرو ، وأميه ابن أبى الصلت ... وورقة بن نوفل القرشى ، وزهير بن أبى سلمى ، وكعب بن لؤى » وعرف عرب الشمال اليهودية والنصرانية . ولقد تحدث صالح حسن السادة (١٩٨١ ، ص ص ٦٨ـ ٧٦) عن الحياة الدينية فى الخليخ وشرق الجزيرة العربية قبل الإسلام مؤكدا أن أهم العقائد التى سادت فيها هى الوثنية والمجوسية واليهودية والنصرانية . ويذكر تورى Torrey (١٩٣٣ ، ص ص ١٠ ـ ١٥) أن اليهود سكنوا فى خيبر والمدينة ومكة . ويذكر بل Bell (١٩٢٥ ، ص ص١٨ ـ ٢٥) أن ممالك الشمال كانت مراكز قوية للنصرانية التطورية فى القرن السادس الميلادى . ومن هذه المراكز انتشرت النصرانية إلى كل مكان فى شبه الجزيرة العربية . غير أن صالح حسين السادة (١٩٨١ ، ص٧٦) يستنتج من استعراضه لعقائد العرب أنه «لم تحظ عقيدة من العقائد باقتناع العرب كلهم فى هذه المناطق (يريد الخليج وشرق الجزيرة) مما أحدث لونا من القلق أو الخواء الوجدانى ، كان علاجه الحاسم عقيدة الإسلام».

وكانت القبيلة هى الوحدة السياسية عند العرب فى الجاهلية . وكان انتماء العربى إلى قبيلته ، ولم يتجاوز وعيه السياسى حدود القبيلة . وهكذا كان المجتمع العربى فى الجاهلية مفتتاً ، وكان حب القتال مركوزا فى نفوس العرب حتى تحول إلى بطش وبغى كما يبدو من معلقة عمرو بن كلثوم التى يقول فيها :

إذا ما الملك سام الناس خسفا

أبينا أن نقر الذل فينا

لنا الدنيا ومن أمسى عليها

ونبطش حين نبطش قادرينا

بغاة ظالمين وما ظلمنا

ولكنا سنبدأ ظالمينا

وليس معنى ذلك أن الحياة العربية خلت من القيم الإيجابية فلقد أعز العرب الكرم ، والشجاعة ، ونصرة الضعيف والمظلوم، وكرهوا الإسراف والتبذير، ولعل ذلك يبدو من شهرة حاتم الطائى بالكرم ، وعنترة بالشجاعة ، وشهرة آخرين بالحلم والصفح وطول الأناة وغيرها من القيم المحمودة . ويقول حسين جمعة (١٩٩٨، ص٣٩) : «فعروة بن الورد العبسى على شرفه ومنزلته فى قومه وعلى الرغم من دعوته فى الصعاليك دعوة إنسانية ، فإن عبسا لم تكن لترضى عن سلوكه فى اعتراض أرزاق الناس وسلبها ... وطرفه بن العبد على منزلته فى بكر ماكان إسرافه وتبذيره لمال أهله فى شرب الخمر ليرضى قومه.» وكان العرب فى الجاهلية يعرفون ثلاثة أنواع من العلوم أوردها محمد منيرمرسى (١٩٨٣ ، ص٢١١) نقلا عن الشهرستانى « أحدها علم الأنساب والتواريخ والأديان ... وثانيها علم الرؤيا ... وأما النوع الثالث فهو علم الأنواء وذلك مما يتولاه الكهنة. أما الشعر فهو ديوان العرب وكانوا يتطارحونه فى الأسواق»، وكان العرب فى جاهلتيهم أميين لايعرفون القراءة والكتابة لاعتمادهم على الرواية والمشافهة ، وكان عدد من يعرف القراءة والكتابة منهم قليلا . يقول محمد منيرمرسى (١٩٨٣ ، ص ٢١٢) : « كانت معرفة الكتابة والقراءة مقصورة على عدد قليل جدا من العرب قبل الإسلام».

هـ- اتجاهات التربية العربية قبل الإسلام:

من خلال العرض السابق لمظاهر الحياة والحضارة فى بلاد العرب قبل الإسلام نستطيع استنتاج بعض الاتجاهات الأساسية للتربية التى أخذوا أنفسهم بها لإعداد الناشئة للعمل والحياة فى ظل تلك الظروف.

١- أهداف التربية:

تتلخص أهداف التربية العربية قبل الإسلام فى إعداد الناشئة للعمل والحياة وفقا لظروف مجتمعاتهم البدوية والحضرية ، وما أوجبته تلك الظروف من تنمية قدرات واستعدادات وقيم واتجاهات خاصة . فالحياة البدوية اقتضت تدريب الصغار على مهارات الصيد والقنص ، والرعى والزراعة ، والاحتطاب ، والحلب والدر، وجلب

الماء والعناية بالحيوانات إشباعا لحاجاتهم المادية ، وتدريبهم على أعمال الحرب والضرب والقتال والفروسية ومنازلة الوحوش تحقيقا للأمن . واستهدفت التربية الحضرية إعداد الناشئة لممارسة المهن المختلفة كالزراعة والبناء والتداوى والصناعة والتجارة . واقتضت الحياة العربية قبل الإسلام ـ سواء فى البادية أم الحاضرة ـ تنمية بعض القيم والاتجاهات والعادات والتقاليد الاجتماعية والدينية ، وتعميق الانتماء إلى القبيلة والعشيرة ، وتحقيق المسايرة الاجتماعية بصفة عامة ، ومايوجبه ذلك من ضرورة مناصرة القبيلة ظالمة أو مظلومة والقيام بكل أمر تسنده إليه والتسامح مع أعضائها . ويبدو ذلك من قول معاوية بن مالك بن جعفر الذى أورده المفضل الضبى فى مفضلياته (١٩٧٦، ص٣٥٥) :

نعطى العشيرة حقها وحقيقها

فيها ونغفر ذنبها ونسود

وإذا تحملنا العشيرة ثقلها

قمنا به وإذا تعود نعود

فالشاعر لايتردد فى القيام بأى أمر تسنده إليه القبيلة تحقيقا لسيادتها، وإن أساءت إليه غفر لها ذنبها لأنه ماخلق إلا لها . ولايتردد العربى فى الدفاع عن قبيلته بل يعتبر حماية ذمارها أمرا لاينفصل عن حماية امرأته فى حله وترحاله. ومن أحسن ماقيل فى الدفاع عن شرف القبيلة قول عمرو بن كلثوم فى ديوانه (١٩٩١، ص ص ٨٦ ـ ٨٨) :

على آثارنا بيض حسان

نحاذر أن تقسم أو تهونا

أخذن على بعولتهن عهدا

إذا لاقوا كتائب معلمينا

يقتن جيادنا ويقلن لستم

بعولتنـــا إذا لم تمنعونـــا

وما منع الظعائن مثل ضرب

ترى منه السواعد كالقلينا

فابن كلثوم يفتخر بأنه مامنع النساء شئ مثل ضرب تطير منه سواعد المضروبين من الأعداء الذين يتجرؤون على استباحة حرمات قومه. وكانت العرب تشهد النساء الحروب وتقيمها خلف الرجال ليقاتل الرجال دفاعا عن حرمها.

٢- أنواع التربية ومحتواها:

تدلنا أهداف التربية العربية قبل الإسلام على عناية العرب بأنواع مختلفة من التربية هى التربية البدنية التى تدرب الشباب على أعمال الحرب والضرب والمغالبة والفروسية ، ومايصاحب ذلك من تدريب على ركوب الخيل ، والطعن بالرمح، والضرب بالسيف، والرمى بالنبل ، والجرى ، والعدو ، والمشى لمسافات طويلة ، والصبر على الجوع والعطش . كما عنى العرب قبل الإسلام بالتربية المهنية التى تمثلت فى تزويد الناشئة بالمهارات والاتجاهات اللازمة للمهن المختلفة من رعى ، وزراعة ، وصناعة ، وتجارة ، وتدبير منزلى ، وهندسة وبناء. وقد استلزم اشتغال العرب بالرعى والزراعة معرفة طبيعة الأرض ، وتربية الحيوانات ، وحالة الطقس ، وتخزين الحاصلات . وأوجب التدبير المنزلى العناية بالصغار ، وتطبيبهم ، والعناية بصحتهم وتنمية أعضائهم . واستلزم الاشتغال بالتجارة والملاحة معرفة الطرق التجارية ، وركوب البحر ، ومعرفة الكتابة ، وتدوين الحسابات واقتضت التربية الاجتماعية معرفة عادات ومواصفات القبيلة ، واحترام مقدساتها ، والدفاع عنها . كما أن التربية الدينية حتمت القيام بالممارسات الدينية ، ومعرفة الطقوس والشعائر المرعية ، سواء فى ديانتهم الوثينة أم فى دياناتهم السماوية من يهودية ونصرانية ، ومعرفة الحلال والحرام، والمقبول وغير المقبول دينيا . أما التربية المهنية فقد أوجبت نوعا من التلمذة الصناعية قوامه التقليد ، والمحاكاه ، والاشتراك فى النشاط .

٣- مؤسسات التعليم:

كانت الأسرة أو العشيرة أو القبيلة من أهم مؤسسات التعليم فى التربية العربية قبل الإسلام . إذ كان الطفل يأخذ عن أسرته وعشيرته طرقها فى كسب العيش وصناعة الملابس والمساكن وطرق الإغارة والدفاع والفنون والصناعات . وكان لأندية العرب ، وأسواقهم ، ومهرجاناتهم ، ومجالس قضائهم ، وعلومهم، وأدابهم تأثيرات تعليمية كبيرة . وكان العرب ينشدون الأشعار ، ويلقون الخطب، ويحتكمون إلى قضاة للحكم على أفضل تلك الخطب والأشعار . وكان من أشهر نواديهم نادى قريش ، ومن أشهر أسواقهم التى يجتمعون فيها إما للبيع والشراء وإما لمطارحة الشعر ومبادلة الأخبار والبحث فى الشئون العامة : عكاظ ومجنة وذو المجاز . وكان للعرب قبل الاسلام مجتمعات وأندية للوعظ والفصل فى الخصومات والمشاورة فى مختلف الأمور . وكان فى بعض الحواضر معاهد ومدارس ومكاتب لتعليم القراءة والكتابة . ومن ذلك مكتب يوسف الثقفى فى الطائف الذى كان يعلم فيه القراءة والكتابة . ويذكر محمد منير مرسى (١٩٨٣، ص ص٢١١ - ٢١٢) نقلا عن البلاذرى « أن بعض اليهود كانوا يعلمون الكتابة العربية فى الزمن الأول قبل الإسلام».

٤- طرق التعليم:

يقول محمد منير مرسى (١٩٨ ، ص٢١٠) : « اعتمدت التربية عند العرب قبل الإسلام على التقليد والمحاكاة ، فكان الصغار ينشئون على تقليد ومحاكاة الكبار وكانت القبيلة وما بها من عشائر وبطون تقوم بتعليم صغارها وفقا للمبادئ والقيم الاجتماعية السائدة فى القبيلة». وبالاضافة إلى طرق التقليد والمحاكاة كانت الرحلة والانتقال من مكان إلى مكان ، والمشاركة فى الأشطة المختلفة، والملاحظة، والتلقين ـ وبخاصة فى الواجبات الاجتماعية والدينية ـ من طرق التعليم التى استخدمها العرب قبل الإسلام فى تربية أبنائهم.

٥- التنظيمات التعليمية:

لم توجد تنظيمات تعليمية بالمعنى الدقيق فى التربية العربية قبل الإسلام. فلم توجد صفوف أو مراحل تعليمية ولم توجد مقررات محددة تدرس على مستويات مختلفة . ولانستطيع تصور عناصر تنظيمية فى التربية العربية قبل الإسلام إلا فى التربية العسكرية أو التربية المهنية . فإعداد الفارس كان يخضع لقواعد وتنظيمات ومستويات متدرجة ومهارات يتدرب عليها الشاب حتى يكتمل نضوجه وتعقد له المباريات والمناسبات المختلفة التى يحاول فيها إظهار براعته ومهارته حتى يحظى باعتراف أعضاء العشيرة أو القبيلة . ونجاح الشاب فى آداء العمل المهنى ـ سواء أكان بناء أم حدادة أم زراعة ـ يعتبر دليلا على اكتمال إعداده بقطع النظر عن العمر الذى يبدى فيه هذه القدرة أو تلك . وكان إعداد الشاعر غير مختلف عن إعداد مختلف المهنيين إن صح مايسمى بإعداد الشاعر ، لأن الشاعر كان ينبغ ولايعد ، ولم توجد مقررات أو برامج لإعداده.

ثانيا: التربية الإسلامية فى العصور الوسطى:

أ- مقدمة:

عاصرت التربية الإسلامية التربية النصرانية فى العصور الوسطى ، غير أن مفاهيمها كانت مختلفة عن مفاهيم التربية النصرانية وكانت مضامينها أهم وأعمق . وكان للعرب المسلمين فضل المحافظة على الثقافة القديمة والإضافة إليها من العبقرية العربية . وتمثلت عبقرية العرب المسلمين فى هضم ثقافات الأمم القديمة والإفادة منها فى إشباع حاجاتهم وتحقيق مطالبهم . فاستعاروا الرياضيات والعلوم الطبيعة من العالم الهللينى وأضافوا إليها ، وأخذوا نظام العد من الهند، وطوروا العلوم التطبيقية والفنون الميكانيكية . لقد صنعوا حضارة تعتمد على العلم، واستخدموا العلوم فى حياتهم اليومية ، وطوعوا العلم لخدمة الحياة الإنسانية . ويدين العالم الغربى للعرب المسلمين بروح البحث العلمى ، والتجريب، واختراع الأدوات العلمية ، فضلا عن الاتجاهات الفردية التى أدت إلى الإصلاحات الدينية فى أوربا ،

وقيام الثورات الفرنسية والأمريكية ، التى نادت بالعدل والإخاء والحرية والمساواة . وكان للعرب المسلمين فضل إعانة أوربا على اكتشاف منطق أرسطو. فعن طريق اسبانيا انتقلت كتابات أرسطو والشروح العربية عليها إلى أوربا فأعانت على نمو الحركة المدرسية. وكان الإسلام نواة الحضارة العربية الإسلامية التى أدهشت العالم . يقول ويلز Wells (د.ت، ص٥٦٨): « لادليل على وجود طاقة أو قوة مهمة فى صحراء العرب حتى بداية القرن السابع الميلادى . إذ كانت الحياة تسير كما سارت منذ آماد بعيدة حيث يعيش الناس حول الغدران ويزرعون مساحات محدودة ويقيمون فى المدن المسورة خشية من البدو الذين يتجولن فى الصحراء بقطعانهم وأغنامهم وخيولهم» وبعد البعثة ظل محمد عليه الصلاة والسلام يدعو إلى ربه ثلاث عشرة سنة فى مكة، ولم تنتشر دعوته فى مكه انتشارا سريعا ولم يؤمن به إلا نفر قليل منهم خديجة زوجته وعلى ابن عمه وأبو بكر وعمر ، وخشية على حياته ودعوته هاجر الرسول الكريم من مكة إلى المدينة سنة ٦٢٢م، وبدأ الرسول عمله السياسى والعسكرى فى المدينة وحصل على ولاء أهلها . وبعد ثمانى سنوات من هجرته من مكة عاد إليها منتصرا . ولم يمت محمد صلى الله عليه وسلم قبل انتشار الإسلام فى شبه الجزيرة العربية كلها. وبعد موت النبى صلى الله عليه وسلم انتقلت قيادة الأمة الإسلامية من بعده إلى الخلفاء الراشدين : أبى بكر الصديق وعمر وعثمان وعلى. وكانت المدينة عاصمة خلافة أبى بكر وعمر وعثمان وكانت الحيرة عاصمة خلافة على رضى الله عنه . ولقد انتشر الإسلام سريعا فى عهد الخلفاء الراشدين إذ حاول أبو بكر تحويل العالم كله إلى الإسلام وعبادة الله الواحد الأحد. وتقدم المسلمون المجاهدون لنشر كلمة الله. ففى عهد الخلفاء الراشدين أصبحت سوريا وفلسطين والعراق وإيران ومصر دولا إسلامية . وفيما بعد انتشر الإسلام فى شمال أفريقيا ، واندفع المسلمون المجاهدون إلى أوربا عن طريق إسبانيا. ولقد أعان على الانتشار السريع للإسلام موافقته للطبيعة الإنسانية ، وإعانته على تحقيق الآمال الإنسانية ، ورقى الأنظمة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التى أحدثها. وبعد الخلفاء الراشدين حكم الأمويون العالم الإسلامى وجعلوا دمشق عاصمة

للإمبراطورية الإسلامية وفى أثناء حكم بنى أمية امتدت الفتوحات الإسلامية إلى الهند والصين وشمال أفريقيا وإسبانيا، وفى منتصف القرن الثامن الميلادى حصل العباسيون على السلطة من الأمويين ، وكانت فترة حكمهم هى العصر الذهبى للحضارة الإسلامية . ولقد تميزت الفترة الأولى من حكم العباسيين بالترجمة من اللغات الفارسية والهندية والسريانية والإغريقية إلى اللغة العربية . ومن خلال تنميتهم لما وصل إليهم من العلوم والطب والفلك والجغرافيا والرياضيات بلغوا شأوا عظيما فى الكيمياء والجبر والفلسفة والتاريخ والأدب والأخلاق. وفى العصر العباسى انتشرت الفرق الدينية والفلسفية ومن أشهر الفرق الإسلامية أهل السنة والشيعة والصوفية . وكانت إيران مركزا للدعوة الشيعية ثم أصبحت مصر دولة شيعية فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر. وفى العصر العباسى كان أبو حامد الغزالى جامعا بين عقيدتى أهل السنة والصوفية. وبعد العباسيين حكم الفاطميون فيما بين القرن العاشر والثانى الميلادى ، واستطاع القائد جوهر الصقلى الاستيلاء على مدينة الفسطاط وجعلها عاصمة للملك الفاطمى ، وبنى الجامع الأزهر عام ٩٧٢م ليكون مكانا للتعليم والصلاة ، ثم أصبح الجامعة الإسلامية الأساسية فى العالم الإسلامى . وكانت هذه الفتوحات مدعاة لنمو حركة تربوية وتعليمية على درجة كبيرة من الأهمية . فبعد انتشار الإسلام فى ربوع ذات حضارات قديمة مثل سوريا ومصر والعراق وإيران كان لابد من صياغة تعاليم الإسلام على نحو يقبله أصحاب تلك الحضارات. ولقد أعان اليهود والنصارى على تقديم العلم والفلسفة الإغريقية إلى المسلمين . ونتيجة للاحتكاكات الثقافية بين المسلمين وغيرهم من أصحاب الحضارات القديمة عن طريق الرحلة أو الغزو بدأ العلماء المسلمون يترجمون العلوم والفلسفات والرياضيات والكتابات الطبية ويضيفون إليها ، وأسست المكتبات العظيمة فى قصور الأمراء والخلفاء ، واستدعى العلماء والفلاسفة والأطباء والرياضيين والأدباء للإقامة فى قصور الخلفاء. وفى القرن العاشر الميلادى أسست المدارس فى بغداد والبصرة وبخارى والقاهرة ، وفى كل مكان من العالم الإسلامى. واستطاع ابن سينا أن يؤثر فى جماعة صغيرة عرفت بإخوان الصفاء

حاول أعضاؤها عقلنة الدين الإسلامى ، ونشروا دائرة معارف اعتبرت مشروعا كاملا للتعليم العالى . ولكن هذه الحركة لم توفق بسبب الاضطهادات الدينية مما اضطر إخوان الصفا إلى الهجرة إلى غرب إفريقيا وأسبانيا حيث استطاعوا إكمال مشروعهم الحضارى بمساعدة الخلفاء المستنيرين ، وكان لهذه الحركة تأثير قوى فى التعليم الأوربى فى العصور الوسطى.

ب- الاتجاهات التربوية عند المسلمين:

إذا ألقينا نظرة على خريطة العالم الإسلامى نلاحظ امتداده الواسع فى قارتى آسيا وأفريقية واشتماله على أقطار متعددة وشعوب كثيرة متنوعة اللغات، الأمر الذى يوحى بأن الحضارة الإسلامية حضارات متنوعة ، وأن من العسير الحديث عن حضارة إسلامية واحدة بصيغة الأفراد. ولكن حينما نتعمق دراسة الموضوع ونميز بين الظواهر السطحية والبنيات الأساسية ندرك أن وراء التعدد الظاهرى وحدة فى العمق أو الأساس . ولقد قدم محمد زنيبر(١٩٧٧) تحليلا إضافيا لظواهر التعدد والوحدة فى العالم الإسلامى . فمن ظواهر التعدد فى رأيه الإختلاف الجغرافى بين الأقطار الإسلامية ، واختلاف الميراث الثقافى والتاريخى بين شعوبه ، واختلاف الأجناس والسلالات ، واختلاف اللغات واللهجات. ومن مظاهر الوحدة بين الأقطار الإسلامية الدور الأساسى الذى أنيط بالدين فى حياة المجتمع الإسلامى، واللقاء الدائم بين أبناء الشعوب الإسلامية فى مواسم الحج ، والمفاهيم الأساسية التى وضعها الإسلام فى أذهان المسلمين مثل مفهوم الأمة الإسلامية ، ومفاهيم الإمامة والخلافة ، والشعور بالوحدة والتضامن فى حالات الأزمات التى مرت بالعالم الإسلامى قديما وحديثا كالحروب الصليبية والغزو المغولى والاستعمار الحديث . وبناء على هذا التحليل استنتج محمد زنيبر أن لنا الخيار فى دراسة الحضارة الإسلامية من خلال تناولها فى نطاق قطر واحد أو النظر إليها ككل . ولعل ذلك يبدو من قوله (ص ١١) : « فلنا الخيار إذن بين الدراسة المونوغرافية التى تتيح لنا الفرصة لتحليلات مفصلة .... وبين النظرة الشمولية التى تقودنا إلى الكشف عن فلسفة الحضارة الإسلامية وبنياتها الأساسية وعوامل تطورها». ولقد أثر كاتب هذه

السطور الأخذ بالاتجاه الثانى رغبة فى الإيجاز واقتداء بجهود البعض فى الميدان من أمثال عبد الله عبد الدايم (١٩٧٨) ومحمود قمبر وآخرين (١٩٨٨). يقول عبدالله عبد الدايم (ص١٤٢) : « ولاشك أن بوسعنا رغم كل شئ أن نقول بوجود تربية عربية إسلامية عامة متجانسة إلى حد بعيد ، وأن نتحدث بالتالى عن التربية العربية الإسلامية كوحدة ، بدءا من ظهور الإسلام حتى انهيار وحدة الإمبراطورية العربية الإسلامية ». ويقول محمود قمبر (ص ٣٥٩) : « نحن نقصد بها (يريد التربية الإسلامية) التربية التى مارستها المجتمعات الإسلامية مقابلين بها التربية المسيحية التى أخذت بها المجتمعات المسيحية أو التربية الهندية التى اشتغلت بها أمة الهند وغيرها من التربيات التى عرفتها ومارستها أمم وشعوب لكل منها تربية قومية خاصة».

١- أهداف التربية الإسلامية:

استهدفت التربية الإسلامية تحقيق غايات دينية وعلمية وعملية ـ حقا إن المسلمين قدروا المعرفة لذاتها ، واستمدوا إشباعات من دراستهم للعلوم المختلفة، واعتبروا تحصيلها كمالا وشرفا ونورا وفضيلة ، ولكن الأغراض الدينية والعملية كانت غالبة على تربيتهم فى مختلف أعصارهم التاريخية . يقول محمود قمبر (١٩٩٨، ص ٣٦٤) : « إذا كان هناك علماء (يريد مسلمين) سعوا إلى العلم من أجل الدين ، فإن هناك علماء آخرين سعوا إلى العلم وقصدهم الأول هو العلم ذاته». واستقراء التاريخ الإسلامى يدلنا على عناية المسلمين بطلب العلم وتحصيله وترقيته وتنميته ، سواء أكان علما دينيا أم طبيعيا ، غير أن الأغراض الدينية والعملية كانت غالبة على اتجاهات المسلمين نحو العلم بصفة عامة ، كما يتضح من مقالة محمود قمبر (١٩٩١) عن هدفية العلم فى الإسلام ، إذ كان مقصود العلم معرفة الله والفقه فى الدين . ولقد قرن المسلمون بين العلم والعمل فكان الرسول صلى الله عليه وسلم يستعيذ من علم لاينفع ويسأل الله أن يعلمه ماينفع . وسلك المسلمون مسلك رسولهم فى الربط بين العلم والعمل فقالوا : «لولا العمل لم يطلب العلم ولولا العلم لم يطلب العمل » ونتيجة لتلك الاتجاهات العملية عند المسلمين ازدهرت

لديهم الزراعة وتربية سلالات ممتازة من القطعان والماشية والخيول ودود القز ، ومهر المسلمون فى صناعة الورق والمنسوجات والأوانى الفخارية ، وابتكروا البصلة لتوجيه السفن التى تحمل تجارتهم بحرا . يقول وايلدز Wilds (١٩٤٤ ، ص٢١٥) : «لقد استخدمت التربية الإسلامية من غير شك لتنمية القدرة العملية وإحداثا للتقدم الزراعى والصناعى والتجارى». ويقول عبدالله عبد الدايم (١٩٧٨ ، ص ص١٤٢-١٤٣): « لم يكن هدف المسلمين من التربية دنيويا محضا كما كان عند اليونان والرومان مثلا ، ولم يكن دينيا كما كان عند الاسرائيليين .... وإنما كان غرضهم دينيا دنيويا معا ... واستطاعوا بفضل هذه التربية الجامعة أن يشيدوا حضارة رائعة ». ويذهب محمود قمبر (١٩٨٨ ، ص ص٣٧١- ٣٧٧) إلى أن التعليم فى المجتمع الإسلامى كان تعليم صغار وتعليم كبار وكان لكل منهما أهدافه. ويحصر قمبر أهداف التعليم الأولى فى ثلاث فئات هى : ١- الأهداف الدينية كالامتثال للأمر الإلهى والطمع فى ثواب الله ، ٢- الأهداف الثقافية التى تمثلت فى اكتساب أدوات الثقافة من قراءة وكتابة ، ومحاربة الأمية ، وتحقيق التجانس الثقافى ، والإعداد لمراحل التعليم الأعلى ، ٣- الأهداف الاجتماعية التى اشتملت على تدعيم الأدوار الاجتماعية ، وتنمية الشخصية الإسلامية . أما أهداف التعليم العالى فاشتملت على نقل ونشر وتنمية ثقافة المذهب لأن التعليم الدينى الإسلامى كان يتسم بالمذهبية ، وتكوين وتجديد الصفوة المذهبية من خلال إعداد نخبة من أهل العلم لممارسة الوظائف المذهبية كالتدريس والإفتاء والقضاء، واكتساب مفاهيم ومهارات العمل فى المجالات العلمية والعملية.

٢- أنواع التربية الإسلامية:

وجدت عدة أنواع من التربية عند العرب المسلمين كالتربية الدينية والخلقية والتربية اللغوية والعقلية ، والتربية المهنية والجمالية ، والتربية البدنية . فلقد إهتم المسلمون بالتربية الدينية والخلقية استجابة لتعاليم الإسلام الذى يوجب عليهم تعليم أبنائهم تعاليم دينهم وكيفية ممارسة شعائره ، ويرى الأهوانى (١٩٧٥، ص٩٧) أن الإسلام رسم للناس قواعد العمل الصالح الذى ينبغى أن يسيروا عليه ومرجع

المسلمين فى الأخلاق هـو القرآن أولا ثم السنة المكملة للكتاب. فـلقد اشتمل القرآن والسـنة علـى كثيـر من القـواعد العـمليـة التى تـتناول أحـوال الناس فـى معاشـهم وصلاتـهم بغـيرهم ومعـاملاتهـم مع بعـضهم ، وأفـعال المرء مع نـفسه . فـالأخلاق الإسلامية أخـلاق شخصية واجتماعـية . وفيما يتعـلق بالأخلاق الشخصيـة أمر الله الإنسان بالاقـتصاد فى الأموال والمأكل فقـال: «ولاتجعل يدك مغلولة إلـى عنقك ولا تبسطها كل الـبسط» وقال تعالى : «كلوا واشربوا ولاتسرفـوا» ويوضح القرآن علاقة الزوج بـزوجته والأب بـأبنائـه والراعى بـالرعيـة ، كما يـحث القـرآن على الإنـفاق والصـدقة والزكاة وإطـعام المساكـين والعنـاية باليـتامى والأرامل وهـى أمور تتعـلق بالأخلاق الاجتماعية . وفيما يتعلق بالتربية المهنية يذهب محمود قمبر (١٩٨٨ ، ص ٣٧٧) إلى أنه بجانـب التعليم الدينى كان هـناك تعليم أدبى للكـتاب فى الدواوين ، وتعـليم علـمى تطـبيقى لـلأطباء فى المـدارس الطبـية والمشافـى ... وللفـلكيين فى المراصد، والمـهندسيـن فى المشاغل ، ولـلعسكـريين فى ثكـنات الجيش وهـلم جرا». ويؤكـد كل من قـمبر (١٩٨٨، ص٣٧٧) ووايـلدز Wilds (١٩٤٤ ، ص ٢١٥) أن التربية المهنية عند المسلمين اشتملـت على تعليم وتدريب ، بمعنى أن التدريب العقلى فى العلوم اعتبر أساسا للـتدريب المهنى . ويذكر وايلدز Wilds (١٩٤٤ ، ص٢١٦) أن المسـلمين فـى أسبانـيا قدموا فـى القرن الـعاشر الميـلادى تدريبـا فى فن العـمارة والنحت والزراعـة والصناعة والتجارة والمهن الـعليا . وحرص المسلمون عـلى تربية أبنائهـم تربية لغوية وجـمالية ، إذ كانوا يرسـلون أبناءهم إلى الـبادية لتحصيـل اللغة العربية ، وكانوا يخـتارون المعلمين أبنائهم وبناتهم ، وأنشـأوا الكتاتيب والمدارس فى الأمصار لتعليم العـربية وفنونها وآدابها، بالإضافة إلى نشر تعـاليم الدين. وتبدو آثار التربية الجمالية فـى آداب العرب المسلمين وأشعارهم وفنونهم ومنـسوجاتهم وآنيتهم وزخارف سيوفهم وعمائرهم ، مما يدل علـى وجود تدريب على هذه المهن الجمالية . ولقد اهتـم المسلمون بالموسيـقى والرقص وإن كان العبـيد يقومون بهذه الفـنون التى يسـتمتـع بها المـسلمـون ، وكان ثمـن الجوارى يـرتفع بـسبب مـهارتهـن فى الغـناء والرقص. ولـقد اهتم المسلـمون بالتربيـة البدنية لإعداد مـؤمن قوى جسما وخـلقا .

ولعل تأكيد التربية الإسلامية على التربية البدنية يبدو من الحديث الشريف «المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف» ولكن القوة البدنية لاتطلب لذاتها فى الإسلام وإنما لما يرتبط بها من القدرة على حسن خلافة الله فى الأرض والقيام بالفرائض والجهاد فى سبيل الله . ونظرا لهذه الاعتبارات عنى المسلمون بكل مايعين على تنمية الجسم من عادات وممارسات كالطهارة والوضوء والابتعاد عن كل مايضر بالبدن من إسراف فى الأكل أو الشرب، ومراعاة لقواعد الصحة العامة.

٣- محتوى التربية الإسلامية:

اعتمدت التربية الإسلامية فى مراحلها الأولى على العلوم النقلية التى اشتملت على علوم الدين من قراءات وتفسير وحديث وفقه ومايتصل بعلوم الدين من علوم لسانية كالنحو واللغة والأدب . وفى المراحل اللاحقة إهتمت التربية الإسلامية بالعلوم العقلية كالمنطق والرياضيات والعلوم الطبيعية كالكيمياء والفلك والطبيعة وغيرها. ويبدو أن المقررات الدراسية ومناهج التعليم كانت تتنوع بتنوع مستوى الطالب . ففى المستوى الأولى اشتمل المنهج على القراءة والكتابة والحساب واللغة والقواعد ومبادئ العلوم الطبيعية . وفى المستوى الأعلى اشتمل المنهج على الجبر والهندسة والطبيعة والكيماء والجغرافيا والفلك والتشريح والطب والجراحة وعلم اللغة والتاريخ والأدب والمنطق والميتافيزيقا والفقه. ومعنى ذلك أن المسلمين علموا على المستوى الأعلى كل العلوم المعروفة الآن تقريبا . ولعل ذلك يبدو من النظام التعليمى الذى نظمه إخوان الصفا فى البصرة وبغداد فى القرن الرابع الهجرى . ويشتمل النظام التعليمى الذى وضعه إخوان الصفا فى رسائلهم (١٩٥٧) على إثنتين وخمسين رسالة موزعة على القسم الرياضى والمنطقى والقسم الطبيعى والقسم الميتافيزيقى والقسم الدينى أو العلوم الالهية والشرعية . ولقد لخصت رسائل إخوان الصفا الفكر العالمى ، وجمعت بين الطبيعة والروح ، ووفقت بين العقل والنقل ، وبينت مركز الإنسان فى الكون ومصيره وواجبه . وبالتالى قدمت تعليما كاملا يهيئ حياة حرة عاقلة هادفة ولكن العالم الإسلامى لم يكن مستعدا لمثل هذه التربية مما عرض أصحاب هذا النظام للاضطهاد .

٤- مؤسسات التعليم:

تنوعات المؤسسات التعليمية فى العالم الإسلامى وبخاصة قبل إنشاء المدارس النظامية فى بغداد عام ٤٥٩هـ إذ كانت الأسرة مؤسسة تعليمية تقوم بدور كبير فى تربية الناشئة . فقد كان الآباء والأمهات أو الأقارب أو المربيات يقومون بتعليم الصغار وتأديبهم . ويطالعنا تاريخ التربية الإسلامية بوجود شخصيات لم تتعلم إلا فى الأسرة مثل ابن حزم ، وعبارات تدل على تعلم العلماء فى رحاب أسرهم مثل «لا شيخ لى إلا والدى» أو «أخذت عن والدى» أو «قرأت على والدى» فالأسرة قدمت تربية دينية واجتماعية وأدبية وعقلية لأبنائها. وكان الكتاب مؤسسة تعليمية متخصصة فى تربية الصغار وزادت أهمية الكتاب باعتباره مؤسسة تعليمية بعد انتشار الإسلام فى الأمصار وزيادة الحاجة إلى تعليم اللغة العربية ومبادئ الدين الإسلامى . يقول محمود قمبر (١٩٨٨، ص ٤٠٥) : « ومما ساعد على انتشار ظاهرة الكتاب كمؤسسة تعليمية للصغار عدة عوامل دينية واجتماعية وبنيوية هى واجب التفقيه الدينى وقراءة القرآن وحفظه ، وتعليم اللغة العربية فى البلاد المفتوحة ونشر الثقافة الإسلامية ، وبساطة الكتاب وقلة تكاليف إنشائه». وكان الكتاب يقوم بعدة وظائف مثل إقراء القرآن وتحفيظه، وتعليم القراءة والكتابة ومبادئ الفقه والنحو وأساسيات الحساب . وكانت المساجد والجوامع من أهم المؤسسات التعليمية فى العالم الإسلامى ، إذ كانت دورا للعبادة ومراكز للقيادة ، ومنابر لإعلان سياسات الولاه والخلفاء . وأقيم فى كل مدينة مسجد جامع يقدم العلوم الدينية والأدبية والعلوم الفلسفية والطبيعة. ومن أشهر هذه المساجد جامع ابن طولون والجامع الأزهر والجامع الأحمدى فى طنطا والجامع الدسوقى فى دسوق ، وجامع دمشق وجامع قرطبة وجوامع صقلية ، وكانت منازل العلماء وقصور الأمراء مؤسسات تعليمية تقوم بدور كبير فى التعليم. ومن أمثلة هذه المؤسسات دار الأرقم بن أبى الأرقم ودار ابن سينا ودار الامام الغزالى . ولقد أورد محمود قمبر (١٩٨٨، ص ص ٤١٦-٤١٧) إحصاء اضافيا بأهم هذه الدور منها دار أبى حاتم البستى، ودار على بن يحى ، ودار أبى القاسم جعفر بن حمدان ودار الشريف الرضى. وكانت قصور

الخلفاء والأمراء من أعظم المؤسسات التعليمية فيما يقول وايلدز Wilds (١٩٤٤ ، ص ٢٢٢) لعدة اعتبارات ذكرها فى قوله : «لأن الخلفاء أحاطوا أنفسهم بجماعات متعلمة من اليهود والنصارى ، وأصبح الخلفاء أنفسهم علماء ، واشتملت تلك القصور على مكتبات عظيمة اشتملت عل مخطوطات جمعت من أقاصى الأرض». وكان المؤدبون الخاصون يقومون بالتعليم فى قصور الخلفاء والأمراء ويخصص لهم مكان فى القصر يقيمون فيه تحت إشراف الخليفة أو الأمير . ثم جاءت المدرسة كمؤسسة تعليمية فى القرن الرابع الهجرى ، وأنشأ الوزير السلجوقى نظام الملك عددا من المدارس النظامية فى فارس وبغداد والموصل ثم أنشئت فى كل مكان من العالم الإسلامى . وإلى جانب هذه المؤسسات التعليمية كان هناك مؤسسات أخرى تقوم بوظائف تعليمية فى العالم الإسلامى مثل الصالونات الأدبية ، وحوانيت الوراقين ، والمكتبات ، والخوانق والربط والزوايا ، فضلا عن الرحلة العلمية . ولقد بين محمود قمبر (١٩٩٢ مجلد٣) القيمة التربوية للرحلة كالتكوين العلمى ، والتلاقح الفكرى ، وتدعيم الوحدة الثقافية ، ونشر الأفكار الجديدة ، والتنمية العلمية.

٥- تنظيم التعليم:

يمكن تقسيم التعليم فى الإسلام إلى ثلاث مراحل أساسية هى المرحلة الأولية والمرحلة الثانوية والمرحلة العالية. أما المرحلة الأولية فكانت تبدأ فى سن الخامسة ويدرس الأولاد والبنات فى الكتاب أو المسجد مبادئ القراءة والكتابة والحساب وقواعد اللغة والدين والجغرافيا . وكان القرآن هو الكتاب الأساسى للقراءة على اختلاف بين مذاهب الأمصار فى اتخاذ القرآن كتابا للقراءة . ولقد بين ابن خلدون (د.ت) أن أهل المغرب يقتصرون على تعليم القرآن وأهل الأندلس يخلطون بتعليم القرآن رواية الشعر وقوانين العربية وتجويد الخط ، وأهل أفريقية يخلطون فى تعليمهم الولدان القرآن بالحديث فى الغالب ، وأهل المشرق يخلطون فى التعليم كذلك . أما المدارس الثانوية فكانت تعلم الأدب العربى والنحو والحساب والفلك والكيماء والطب والفلسفة . ويذهب عبد الله عبد الدايم (١٩٧٨، ص ص٢٠٢-

٢٠٩) إلى أن المرحلة الثانوية والعالية تعددت فيها المناهج ، ولم يكن الطالب مقيدا بدراسة مواد معينة ولايفرض عليه الأستاذ منهجا خاصا . غير أن المواد الدينية واللغوية كانت مشتركة . وبين وايلدز Wilds (١٩٤٤، ص ٢٢٥) أن الجامعات الإسلامية اشتملت على أقسام أو مدارس تدرس مختلف العلوم مثل المدارس الطبية والمدارس الفلكية ومدارس الموسيقى أو البحرية ، وكانت الجامعات مفتوحة للجميع ويدرس فيها الطلبة من مختلف الطبقات والقوميات . وكانت تقدم الاعانات للطلبة ويقيمون فى الجامعات مع أساتذتهم فى نظام أشبه بالداخلية . ويضيف عبد الله عبدالدايم (١٩٧٨، ص ص ١٩٨ـ ١٩٩) مرحلة تعليمية رابعة هى مرحلة الأبحاث أو الدراسات العليا كالتى كانت تتم فى بيت الحكمة.

٦- طرق وأساليب التعليم:

اعتمدت التربية الإسلامية على طرق التلقين والحفظ والاستظهار فى المراحل الأولية وعلى طرق الإملاء والمحاضرة والمناظرة فى المراحل التعليمية الأعلى. وفى مجال التعليم الخلقى اعتمدت التربية الإسلامية على القدوة والتوجيه والنصح والترغيب والترهيب ، ولقد اعتمدت طرق التعليم على عدد من المبادئ التعليمية كالتدرج فى التعليم وتفريده ، وعدم الخلط بين علمين فى وقت واحد، ومسايرة مراحل النمو ، ومراعاة ميول التلاميذ، وغير ذلك من المبادئ التى أوضحها محمود قمبر (١٩٨٨) ويذهب وايلدز Wilds (١٩٤٤ ، ص ٢٢٥) إلى أن العرب المسلمين اعتمدوا على طرق الملاحظة والتجربة فى تعليم العلوم الطبيعية كالكيماء والطبيعة والفلك والطب فى المعامل والمراصد والمشافى.

المراجع

أولا : المراجع العربية :

١- ابن هشام (أبو محمد عبد الملك) : كتاب سيرة النبى ، (تحقيق مصطفى السقا وآخرين) ، دار الجيل، بيروت ، ١٩٥٥.

٢- أبو الأعلى المودودى : الأمة الإسلامية وقضيته القومية ، دار الأنصار، القاهرة ، ١٩٨١.

٣- أحمد فؤاد الأهوانى : التربية فى الإسلام ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٥.

٤- إخوان الصفا : رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء ، دار صادر للطباعة، بيروت ، ١٩٥٧.

٥- الجاحظ : البيان والتبيين (تحقيق فوزى عطوى) ، الشركة اللبنانية للكتابة ، بيروت ، (د.ت).

٦- السيد عبد العزيز سالم : دراسات فى تاريخ العرب : تاريخ العرب قبل الإسلام ، جـ١ ، مؤسسة شباب الجامعة ، الاسكندرية ١٩٦٩.

٧- المسعودى (أبو الحسن على بن الحسين) : مروج الذهب ، طبعة محى الدين عبد الحميد ،دار المعرفة، بيروت / لبنان ، ١٩٥٨.

٨- المفضل الضبى : المفضليات (تحقيق أحمد شاكر وعبد السلام هارون) ط٥، دار المعارف بمصر ، القاهرة ، ١٩٧٦.

٩- المقدسى (شمس الدين أبو عبد الله بن محمد) : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، ليدن ، ١٩٠٦.

١٠- اليعقوبى (أحمد بن أبى يعقوب) : تاريخ اليعقوبى ، جـ١ ، طبعة النجف ، ١٣٨٥هـ.

١١- جواد على : تاريخ العرب قبل الإسلام ، مطبوعات المجتمع العلمى العراقى ، بغداد ، ٨ أجزاء ، ١٩٥٠ - ١٩٥٩.

١٢- حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ، جـ١ ، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ، ١٩٥٨.

١٣- حسن أحمد الحيارى : «الإسلام والقومية» ، الدراسات الإسلامية ، العدد الثانى ، مجلد ٢٧ ، مجمع البحوث الإسلامية ، الجامعة الإسلامية العالمية ، إسلام أباد ، باكستان ، (د.ت).

١٤- حسين جمعة : « الإنتماء وظاهرة القيم فى القصيدة الجاهلية » ، آفاق الثقافة والتراث ، السنة الثالثة ، العدد الحادى عشر ، ديسمبر ١٩٩٨ ، ص ص ٣٧ - ٥٣.

١٥- خليل يحيى نامى : « أصل الخط العربى وتاريخ تطوره إلى ما قبل الإسلام » ، مجلة كلية الآداب ، الجامعة المصرية ، مجلد ٣ ، جزء ٢ ، مايو، ١٩٣٥.

١٦- دريد بن الصمة : ديوان دريد بن الصمة (تحقيق ومراجعة محمد خير البقاعى) ، دار قتيبة ، دمشق ، ١٩٨١.

١٧- سعد مرسى أحمد : تطور الفكر التربوى ، ط ١٠ ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٨٦.

١٨- شوقى ضيف : العصر الجاهلى ، دار المعارف، القاهرة ، ١٩٦٠.

١٩- صالح حسين ناصر السادة : تاريخ شرق الجزيرة والخليج العربى من فجر الإسلام حتى نهاية الدولة الأموية ، رسالة ماچستير غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ١٩٨١.

٢٠- عبدالله عبدالدايم : التربية عبر التاريخ ، ط ٣ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٧٨.

٢١- عمرو بن كلثوم : ديوان عمرو بن كلثوم (تحقيق إميل بديع يعقوب) ، دار الكتاب العربى ، بيروت ، ١٩٩١.

٢٢- عنترة بن شداد : شرح ديوان عنترة (شرح الخطيب التبريزى) ، دار الكتاب العربى ، بيروت ، ١٩٩٢.

٢٣- فيليب حتى : تاريخ العرب (ترجمة محمد مبروك نافع) ، القاهرة ، ١٩٩٣.

٢٤- محمد زنيبر : « مراكز الحضارة الإسلامية » ، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة محمد الخامس ، العدد ١٢ ، الرباط ، ١٩٧٧ ، ص ص ٧ - ١٣.

٢٥- محمد منير مرسى : تاريخ التربية فى الشرق والغرب ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٨٣.

٢٦- محمود مصطفى قمبر : «التربية الإسلامية» فى حسن حسين البيلاوى ومحمود قمبر ومحمد وجيه الصاوى ، دراسات في أصول التربية ، دار الثقافة ، الدوحة ، ١٩٨٨.

٢٧- ———— : «هدفية العلم فى الإسلام» ، حولية كلية التربية ، جامعة قطر ، العدد الثامن ، ١٩٩١ ، ص ص ١٩ - ٧٩.

٢٨- ———— : دراسات تراثية فى التربية الإسلامية ، المجلد الثالث ، دار الثقافة، الدوحة ، ١٩٩٢ .

٢٩- يوسف غنيمة : الحيرة : المدينة والمملكة العربية ، بغداد ، ١٩٣٦.

ثانيا: المراجع الأجنبية:

١- Bell, R., The Origin of Islam and its Christian Environment, Edinburgh Univ., 1925.

2- Breasted, J., A History of Egypt from the Earliest Times to the Persian Conquest, U.S.A., 1905.

3- Fingan, J., The Archeology of World Religions, Princeton, princeton Univ. Press, 1952.

4- Margoliouth, D., The Relations Between Arabs and Israelites Prior to the Rise of Islam, The British Academy, 1924.

5- Thompson, G., The Tombs and Moon Temple of Hureidha, London, 1944.

6- Torrey, C. The Jewish Foundation of Islam, Jewish Institute of Religion, 1933.

7- Wells , P., The outline of History , Doubledany, Doran and Company publishers.

8- Wilds, E., Foundations of Modern Education, War Department, Washingtion, 1944.